القسم الثالث

تداول الارزاق

الفصل الأول

المقايضة — القيمة — الثمن

المقايضة فعل غريزى فى الانسان — الأصلان اللذان ترجع اليهما — تحول المقايضة على التدريج — صنوف المبادلة — ماهية القيمة — مراتب القيم — بواعث تضرّب القيم — المزاحمة — ما يستثنى منها : ضروب الاحتكار — مفاعيل المزاحمة — الثمن

المُقايَضة فِعلٌ غريزيٌّ فى الإنسانِ

خَصيصةُ الإنتاجِ فى المجتمَعاتِ المُمَدَّنةِ أنَّ اكثرَ النَّاسِ فى تِلكَ المجتمَعاتِ ، يُنْتِجونَ ما لا يَستهلِكونهُ بأنفُسهم أوْ ما لا يَستهلِكونَ منهُ إلاَّ جانِباً على قَدْرِ

حاجاتِهم الذّاتيّةِ ، وحاجاتِ بيوتهم ؛ وأنهم يَجلِبُونَ جميعَ الأشياء التى تُعْوِزُهم ، من طريقِ المُبادَلةِ أو البَيعِ والشِّراء : فَيَصنعُ الإسكافُ مائتين أو ثلاثمائة زَوْجٍ مِنَ النِعال مَدَى سنةٍ ، على حينِ أنهُ لا يَتطلَّبُ منها لنفسهِ ولأهلهِ سوى اثنىْ عَشَرَ زَوْجاً

والمالِكُ الصَّغيرُ يَعْصِرُ مِنْ كَرْمَتِهِ — ومساحتُها هِكتارٌ واحد — خمسينَ هكتولتراً من الخَمْرِ، على حينِ أنَّ ما يَشربُهُ مِنها هو وأولادُهُ ، لا يَزيد عن سبعةِ هكتولتراتٍ

والمِنْظارِىُّ يَقْضِى حَياتَهُ فى صُنْعِ المناظير[1] ، وَرُبَما لا يَحتاجُ إلى واحد منها

فالإنتاجُ على ذِمَّةِ المقايَضةِ ، قد حلَّ فى مُجتمعاتِنا الشّاهِدَةِ ، محلَّ الإنتاجِ المقصورِ على إحداثِ الأشياءِ التى يَستهلِكها المُنْتِجُ فى حاجاتهِ الذّاتيّةِ

وقد رأَينا فى القِسمِ الأوَّلِ مِنْ هذا الكتابِ كيفَ

---

(١) جمع مِنظار وهو أداة النظر

تُفْضِى تجزئةُ العمل تدريجاً إلى إزالةِ الإنتاجِ القديمِ الذى كانت الأُسَرُ والعَشائرُ على عهدِهِ تَستَهلِكُ جميعَ ما تنتُجُهُ ، ولا تُنتج فَوْقَ ما تستنفدهُ إلاَّ ما نَدَرَ

وُجِدَت المقايَضةُ منذُ وُجِدَ الإنسانُ ، ثمَّ اتَّسعَ نِطاقُها باتِّساعِ نِطاقِ العُمْرانِ ؛ فهى فِعلٌ غريزيٌّ لم يكُنْ من إبداعِ أحدٍ ؛ وَحُكْمُها حُكْمُ اللُّغةِ ، والمشارَكةِ ، والتَّكوُّنِ — شُعوباً وقبائلَ —

فليْسَ لِمُدَّعٍ أنْ يدَّعيَ اختراعَ المبادَلة ، ولا اللُّغة ، ولا المشارَكةِ

وإنما خُلِقَ الإنسانُ مُقايِضاً كما خُلِقَ مَدَنياً بِطَبْعِهِ

الأصلان اللذان ترجع اليهما المقايضة

لِلمُقايَضة أصلان : تَفاوُتُ المَقدِرَةِ المُنْتِجةِ فى الأراضينَ ، وتفاوُتُ المقدرةِ المنتِجةِ فى الأناسِيِّ[1] : الأوَّلُ منهما مُطْلَقٌ والثانى نِسبيٌّ

---

(١) الأناسيّ جمع إنسان

مِنَ الحاجاتِ التى لا غِنَاءَ عنها للانسان ، المِلْحُ ؛ إلاَّ أنَّ من الأقطارِ ما لا مِلْحَ فيهِ كالسُّودان وكبعضِ أرجاءِ الهندِ . فلمَّا علمَ أهلُ هذهِ البلادِ بوجودهِ فى بلادٍ أُخَرَ عَرَضُوا فُضُولَ أرزاقِهم مِنْ ماشيةٍ أو سِواها لِلحصُولِ عليهِ . وهذا مَثَلٌ من ألفِ مَثَلٍ يدخل فى بابهِ

أمَّا التَّفاوُتُ فى مَقْدِرَةِ الأَناسِيِّ على الإِنتاجِ ، فقد وُجِدَ عند أقدَمِ القبائلِ وعنهُ نَجَمَ التَّبادُلُ تدريجاً . مِثالهُ : رَجلٌ فى طائفةٍ من صادَةِ البَرِّ أو صادةِ البحرِ ، وُلِدَ أضعفَ مِنْ لِداتهِ[1] ، أو أصابهُ صَدَعٌ عَزَّ جَبْرُهُ ، أو نَزَلَتْ بهِ عاهةٌ أَشْفَى[2] منها ، فهو لا يَستطيع الصَّيْدَ ؛ ولكنَّهُ يستطيعُ صُنْعَ السِّهامِ أو الصَّنانيرِ لصيد الحيتان ، أو تَرْميمَ الاكواخِ أو صُنعَ الأَكْسِيَةِ من جِلدِ الوَحْشِ

على هذا النَّحوِ كانت أوائلُ المبادلةِ ثُمَّ تَرَقَّتْ بِفِعلِ الغريزَةِ الخاصَّةِ التى تَفْرِقُ الإِنسانَ من الحيوانِ ، حتى أَفْضَتْ إِلى تَعَدُّدِ الحِرَفِ ، وتجزُّؤِ العملِ فى الحدِّ الذى

---

(١) بمعنى أترابهِ أى الذين من سنِّهِ (٢) امتنع شفاؤه

وَصلَتْ معهُ المقدرةُ البَشَرِيَّةُ المنتِجةُ إلى مائةِ ضِعْفٍ لها لا مُقايَضةَ فيما بين الحيوانِ ؛ أمَّا الإنسانُ فقد قايَضَ، ثمَّ تمادَى فى المقايَضةِ ، تَبَعًا لِغَرِيزتِهِ التى كانت فى البدءِ عَمْيَاءَ ثمَّ أصبحت مُبْصِرةً

تحوُّل المقايضة على التدرُّج

كانَ النَّاس فى أَوَّلِ أَمرهم يُبادِلون فُضُولَهم بما هُم اليهِ أَحوَجُ ، بمعنى أنهم كانوا يُعْطُونَ جزءًا يَسيراً من مُنتَجاتِهم للحُصول على بعضِ الأَشياءِ التى لا يَستَغْنُونَ عنها : كأَنْ يَخرُجوا عن عُشْرِ كَسْبِهم أو خُمْسِ كَسْبِهم مِنَ الصَّيْدِ لِيَأْخُذُوا بهِ سِهاماً أو جُلوداً مُهَيَّأةً للكِساءِ ، أو لِيُصلِحَ لهم ما اختَلَّ من مَساكِنِهم

ثمَّ اتَّسعَ نِطاقُ الإنتاجِ فى سبيل المقايضةِ حتى أصبحَ النَّاسُ فى هذا الزَّمَنِ يُبادِلونَ تِسعةَ أعشارِ مُنتَجاتِهم أو كلَّ مُنتَجاتهم بأشياءَ يُنْتِجُها غيرُهم من الخَلْقِ؛ وبعضُ هؤُلاء قد يَكونونَ مِنْ سكانِ أَقصى المعمورِ

على أنَّ من أمثلةِ التَّدَاوُلِ والتَّضَامُنِ اللَّذَيْن تُوجِدُهما المقايضةُ بينَ العِبَادِ : ظِهَارَةَ [١] الصَّانع بِقُطْنها المجلوبِ مِنْ أمريكا وَصِبْغَتها المجلوبةِ مِن الهندِ ، وَسَرَاوِيلاتهِ المنسوجةَ من صُوفِ البِلاَتا أو الرَّأْس [٢] وقَهْوَتَهُ المحمولةَ من البرَازيل، وسُكَّرَهُ المستقْدَمَ من جاوَه ، وتَبْغَهُ الوافِدَ من « زِيلَنْدَه » و « فِرْجِينيا [٣] »

ثمَّ إنَّ المقايضةَ تُنَمِّي المقايضة : إذ لا تكادُ حرفةٌ جديدةٌ تُخلَقُ حتى يَنْضَافَ إلى الكَفَاءاتِ الطَّبيعيَّةِ الموجودةِ فى فِطْرَةِ الذينَ يَتَوَلَّوْنها ، ما شاءَ اللهُ من تأثيرِ البيئةِ والتربيةِ والإرثِ مما تَتِمُّ بهِ نواقِصُ تلك الكَفاءاتِ وتَزدادُ قُوَّتُها

صنوف المبادلة

طَرائِقُ المُبادَلةِ مُختلفةٌ جمَّةٌ . مِنْ أمْثِلَتِها مُقايَضةُ

---

(١) الظِّهارة فى الأصل اللغوى نقيض البِطَانَةِ من الثوب : وقد استعرناها لتسمية «سترة» العامل (Blouse) (٢) رأس الرجاء الصالح (٣) فرجينيا ولاية بأمريكا الشمالية Virginie

لِبْرَةٍ مِنْ مِلْحٍ أو سُكَّرٍ بِلِبْرَتَيْنِ أو أربعِ لِبرَاتٍ مِنَ القَمْحِ أو الشَّعيرِ ؛ ومقايضةُ طائفةٍ من الحيوانِ الطَّائرِ أو الدابِّ أو القائمِ ، بعَملٍ يعملُ : كإصلاحِ السِّهامِ لِصيَّادِ البَرِّ ، أو الشَّبكةِ ، أو الزَّوْرَقِ لِصيَّادِ البحرِ ؛ ومقايضةُ منتَجٍ بخدمةٍ ذاتيَّةٍ : كأن يَضْمَنَ رئيسُ القبيلةِ أو أحدُ سَرَاتِها قدراً من الطَّعامِ أو الكِساءِ لِرَجُلٍ آخرَ ، على أنْ يقومَ ذلك الرَّجُلُ بخدمتِهِ

ثمَّ تعدَّدَتْ أنواعُ المُبادَلةِ تبعاً لِنُمُوِّ الحضَارَةِ وتَشَعَّبَتْ كثيراً

شَرْطُ المقايضةِ التَّملُّكُ ، وقِوَامُها المُعادَلةُ : فحَيْثُما كانت المقايضةُ مشروعةً خاليةً مِنَ الغِشِّ أو الإكْرَاهِ أو النَّزَقِ والحُمْقِ ، عَمَّ رِبحُها الفريقَيْنِ المتعامِلَيْنِ وحَصَلا منها على رَفَاهةٍ

فأمَّا أحَدُهما وهو الذى قايَضَ قَمْحاً بِسُكَّرٍ أو بِمِلْحٍ ، فَتَجيءُ رَفاهَتُهُ من أنهُ كان يُحرِزُ قمحاً فَوْقَ حاجتِهِ ، وكان لا يَمْلِكُ ما يَسُدُّ بِهِ عَوَزَهُ من المِلْحِ أو السُّكَّرِ ؛ وأمَّا الثَّانى

فتجيءُ رَفاهتُهُ منْ أنهُ كان أحوَجَ إلى القمحِ منهُ إلى السُّكَّرِ أو الملحِ

فإذا طبَّقْنا هذهِ القاعِدَةَ على المثَلينِ الآنِفَينِ نَجَمَ منها : أنَّ الذى استبْدَلَ رُؤوسَ الحيوانِ بإصلاحِ أدواتِ الصَّيْدِ غانِمٌ ؛ لأنهُ أبرَعُ فى إصلاحِ تلك الأدواتِ منهُ فى قَنصِ الحيوانِ ؛ كما أنَّ المقايِضَ الثَّانيَ غانِمٌ ؛ لأنَّ اصْطِيادَ الحيوانِ أسْهَلُ عليهِ من تَعَهُّدِ سلاحِهِ بالإصلاحِ الذى لا غِنَى لهُ عنهُ

فالإنسانُ يَزيدُ صُنُوفَ مُستهلَكاتِهِ ويَزيدُ مَقْدِرَتَهُ على استهلاكِها بانْصرافِهِ إلى إنتاجِ الأشياءِ التى تُهَيِّئُهُ لها كَفاءَتُهُ الطَّبيعيَّةُ ، وباكتسابِهِ من طريقِ المبادَلةِ جميعَ ما يَحتاجُ اليهِ من الأشياءِ

ما القيمةُ ؟

إذا ثبَتَتْ مشروعيَّةُ المبادلةِ وثبَتَتْ فائِدَتُها فما عَسَى أن تكونَ أصلَحُ القَواعِدِ التى يُسارُ عليها فى المقايَضاتِ ؟

أصلَحُ تِلكَ القواعدِ هى أن تُعرَفَ ماهيَّةَ القيمةِ ، وهذهِ المعرفَةُ مَوْجودَةٌ فى ذِهنِ الإنسانِ يُخالِطُها شىءٌ مِنَ الالتِباسِ فى البَدءِ ثمَّ تَنجَلي وتَتَّضِحُ وتَقْوَى

القيمةُ هى قابليَّةُ الشَّىْءِ لأنْ يُستَبْدَلَ بهِ شىءٌ أو أشياءُ أُخرُ : مِثالها أنَّ هكتولترَ قمحٍ يَعدِلُ خَروفاً متوسِّطَ الحَجْمِ ، أو عشرةَ كيلوغراماتٍ مِنَ الصُّوفِ ، أو عِشرين كيلوغراماً من السكَّرِ . وتلك القيمة لا تكون ثابتةً ولا واحِدةً ؛ بل تَتَنَوَّعُ بِتَنَوُّعِ الأَحوالِ الخارجيَّةِ وبالتَّبَعِيَّةِ لِتَأثُّرَاتِ العَقْلِ

فرُبما كانَ الهكتولترُ من القمحِ فى زمانٍ ومكانٍ معلومَيْنِ لا يُعادِلُ إلاَّ نِصفَ خروفٍ سمينٍ ، أو خمسةَ كيلوغراماتٍ صُوفاً ، أو اثنَىْ عشر كيلوغراماً سكَّراً ، على حينِ أنهُ يُعادِلُ فى زمانٍ ومكانٍ آخَرَيْنِ ، ثلاثةَ أضعافِ الأَبْدَالِ التى عَدَّدناها أو أربعةَ أضعافِها . وعليهِ فالقيمةُ إنما هى المقدِرَةُ البَدَلِيَّةُ

ما الاسباب التى تُعيِّنُ القيمةَ — وهى تلك الحالةُ

المُتَحَوِّلةُ التى لها اكبرُ منزلةٍ فى مُعاملَاتِ العبادِ ؟

لا بُدَّ من اجتماعِ خِلَالٍ ثلاثٍ فى الشىءِ ، لتكون لهُ قيمةٌ :

الأولى أن يكونَ الشىء مُوافِقاً لِرَغيبَةٍ من رَغَائبِ الإنسانِ ، والثَّانيةُ أن يكون دون اقتنائهِ عَناءٍ ، والثَّالثةُ أن يَتَيَسَّرَ نَقْلُ الاستِمْتاعِ بهِ من واحدٍ إلى آخرَ

على أنهُ ليسَ من الضَّرُوريِّ لِصَيْرُورَةِ الشىءِ ذا قيمةٍ أن يَرغَبَ فيهِ العالَمُون أجْمَعُون ، بل يكفى أن يَرغَبَ فيهِ فريقٌ منهم . وإنما الرَّغبةُ فى السِّلَعِ تَحدُث تارةً من كَوْنِها نافعةً ، وهو شأنُ الخبزِ واللحمِ والكِساءِ ؛ وطَوْراً من كَوْنِها سارَّةً مُرضِيَةً لِنَزعةٍ فى النَّفْسِ أو زَهْوٍ بها ، وهو شأنُ الماسِ والمخرَّمِ ، والرَّسمِ ، وكلِّ مُقْتَنًى نادرٍ ؛ وآناً من كَوْنِها ترتبطُ بِشعُورٍ خاصٍّ ، وهو شأنُ الهدِيَّةِ التى تُعرف بالتَّذْكارِ

فالأَسَاسُ الأوَّلُ للقيمةِ ، هو إذن ، مُوافَقةُ الشىءِ لأَرَبٍ عند الإنسان ؛ والأَسَاسُ الثَّانى ، هو إمكانُ نقْلِ

الشيء المرغوب فيهِ من واحدٍ لآخرَ : خُذ الصِّحَّةَ مثلاً ، وهى أكبرُ النِّعَمِ بل أُولى النِّعَمِ ، بل مَصْدَرُ المنافعِ واللَّذائذِ ، فإنها لَمَّا كانت لا تنقلُ من مُتَمَّعٍ بها إلى غيرِ مُتَمَّعٍ بها ، فهى خارجةٌ عن المقايَضةِ ؛ ولهذا لا تُعَدُّ لها قيمةٌ بالمعنى الاقتصاديّ الأَلْزَم

أمَّا الأَساسُ الثَّالثُ للقيمةِ فهو تَصَعُّبُ الحصولِ على المطلوبِ : وبيانُهُ أنَّ كلَّ شيءٍ تُوجِدُهُ الطَّبيعة بكَثْرَة وتَجعلهُ مَنالَ اليَدِ من كلِّ مُرِيدٍ ، فلا قيمةَ لهُ مَهْما كان شَهِيًّا : ومثالُهُ الهواءُ أو الشَّمْسُ

جَعَلَ فريقٌ من الكُتَّاب مَدَار القيمةِ على المنفعةِ — بعد أن تَوَسَّعُوا كلَّ التَّوَسُّع فى معنى هذه اللفظةِ الأَخيرةِ — وعلى نُدُورةِ المطلوبِ ، وعلى العملِ المُجَسَّمِ فى الشيءِ ؛ فكانَ فيما ذكروهُ بعضُ الصَّواب ، ولكنَّهم لم يُوَفُّوا التَّعْرِيفَ حَقَّهُ

وحَقّ التَّعريف هو أنَّ القيمةَ مَزِيجٌ من قُوَّةِ الرَّغبةِ فى الأشياءِ وصُعُوبةِ الحصول عليها ومشقَّةِ إنتاجِها

مراتبُ القيَم فى الإنسانية

تتفاوَتُ القِيَمُ فى مَرَاتبها تَبَعاً لِمَنازِلها من الإيثَارِ[١] فى ذِهنِ الإنسانِ . ولهذا تَرَى الرَّجُلَ المُثْرِيَ إثراءً كبيراً يُفَضِّلُ اقتناءَ صُورَةٍ من صُنْعِ رُوبنس[٢] على مائةِ ألفِ فرنكٍ أو على جميعِ الأَشياءِ المتنوّعةِ التى يتسنّى لهُ اقتناؤُها بذلك القدرِ من المالِ ؛ فلو أنَّ هذا المتَعشّقَ وَجَدَ مُناظِراً لا يَقِلُّ عنهُ ثروةً يُنافِسُهُ فى شِرَاءِ تلك الصُّورةِ ، لَقَبِلَ أن يَبْتاعَها بالمئة ألف الفرنك

من هُنا يتبيَّن أنَّ ترتيبَ القِيَمِ فى المجتمعِ المُمَدَّنِ لا يُوافِقُ البَتَّةَ ترتيبَ المنافعِ فى مَعْناها المألوفِ ، كما يَدُلُّ على ذلك كَوْنُ الماسِ أو المخرَّمِ — وإن هُمَا إلاَّ زينةُ المرأةِ — يَسْوِيَانِ ما لا يَسْوَاهُ إحرامٌ مُدَفِّئٌ من البَرْدِ ؛ وكَوْنُ الكَمْأَةِ[٣] التى لا تُغَذّى ويكثر استعمالها على ما بها من

---

(١) الايثار التفضيل (٢) اسم رسّام فلمنكى شهير Rubens

(٣) نبات مستدير يخرج من نفسهِ كالقلقاس

الإضرارِ بالصِّحَّةِ ، أَغلَى من البَطَاطا على ما بها من الغِذَاءِ المُفِيدِ . وربما صَحَّ القَوْل أنَّ مراتبَ القيَم تكون فى الغالب على العَكْسِ من مراتبِ المَرافِقِ العاديَّةِ

رأَى بعض الكُتَّاب أنَّ فى هذه المُخَالَفةِ جُنُونًا أو إفحَاشًا عائبًا ؛ وأنهم لَمُخْطِئُون : إذ أنَّ ما يُخَالونهُ [١] تَهْوِيشًا ليسَ إلاَّ نِظامًا. ولو كانت أكثرُ الأَشياءِ ضَرورةً لحفظِ الحياة هى أغلى الأَشياءِ ، لَمَا استطاعَ النَّاس أن يعيشوا ولكانوا فى بُؤْسٍ شديدٍ . أمَّا وقد أُغلِيَتْ أثمانُ النَّفَائِسِ التى لا ضَرورة لها من الجهةِ الحيويَّةِ ، فالسَّواد الأعظم من العالمين لا يكترث لها ولا يَعْنِيهِ أمرُها

المرأةُ العامِّيَّةُ التى لها كِسَاءٌ متينٌ من الصُّوفِ ، ليست ، من حيث الكِسَاءُ ، فى حالةٍ طبيعيَّةٍ أَحَطَّ من حالةِ المرأةِ الغَنِيَّةِ التى تَرتَدِى المخرَّم المصنوعَ فى أَلَنْسُون [٢] — وثمن المتر منهُ ألف فرنك — كذلك المأجورُ الذى

---

(١) يخالونهُ يظنونهُ (٢) اسم بلدة بفرنسا يُتقن أهلها صنعَ المخرَّم Alençon

يشرب نَبيذاً عادياً لا يزيد ثمنُ اللتر منهُ عن ثلاثين سنتيماً أو أربعين سنتيماً ، ليس من حيث الفائدةُ الصِّحيَّةُ ، أَسوأَ حَظّاً من الرَّجُلِ المُوسِرِ الذى يشرب النَّبيذ المنسوبَ إلى قَصر لافيت[1] وثمن الزُّجاجة منهُ خمسة عشر فرنكاً . ومن هذا القبيل الفَلاَّح الذى يَقْطُنَ كُوخاً نظيفاً دافِئاً فإنهُ — باعتبار الرَّاحة الجِسْمِيَّةِ — ليس أدنى نصيباً من رَبّ الملايين الذى يسكُنُ قصراً باذِخاً حافِلاً بالرِّياش الفاخر

وفى الواقع ، ماذا يعنى الانسانَ الذى ابتاع بفرنك أو فرنكين نسخةً من كتابٍ شهيرٍ ، من أمرِ إنسانٍ آخرَ يُطالع مُحتوى ذلك الكتاب نفسهِ في نسخةٍ مُتْقنةِ التَّجليد ، يربو ثمنها مئة ضِعْفٍ على ثمنِ الأولى

بل انَّ انحصارَ الغَلاَءِ فى أثمانِ الأَشياءِ التى تُعَدُّ نفيسةً لَدَليلٌ على تقدُّمِ المدنيَّةِ : بمعنى أنَّ مُعْظَمَ حاجاتِ الإنسان ولاسيَّما الضروريَّة منها ، يتسنّى لهُ قَضاؤُها بأدنى النفقات ؛ وأنَّ الفرقَ بين أحوال الخَلْق فى المجتمعِ الواحد يكون

---

(١) اسم مكان بفرنسا

أقلَّ انفراجاً فى كُنهِهِ منهُ فى ظاهرِهِ ؛ وأقربَ غوراً ، بالنِّسبة إلى القِيَمِ التى يَستمتِعون بها

على أنَّ ما هو مشهودٌ فى هذهِ الآيةِ كان لا بُدَّ من وُجودهِ ؛ إذ لولا توافرُ الأشياءِ الضروريَّةِ لحياة الإنسان وانتشارُها فى العالَم ، بعضها عَجَانيٌّ مَوْهوبٌ ، كالهواءِ والماءِ وبعضها سهلُ الاكتساب ، كالخبزِ والكِساءِ ، لَمَا استطاعَ الجنس البَشَرِيّ أن ينموَ هذا النُّمُوّ

بَواعِثُ تَضَرُّبِ القِيَمِ

إنَّ القيمةَ ، وهى ذلك الشىءُ المتبدّلُ المتحوّلُ ، مع كَوْنِها مُرتبطةً — على ما رأيتَ — بالحكمِ الذى يَحكمهُ عقل كلِّ فردٍ فى الحدِّ الذى ينتهى اليهِ المَيْلُ إلى الشىءِ المطلوبِ ، لتَنَزعُ — فيما يتعلَّقُ بأكثر الأشياءِ النَّافعةِ للإنسان — إلى الانحصارِ فى دائرَةٍ ضيّقَةٍ تبعاً للمكان والزَّمان

الحصولُ على القيمةِ الحقيقيَّةِ لا يَتِمُّ إلاَّ بتعاوُن

إرادَتين : إرادة الذى يملك شيئاً ويَطيب[١] عنهُ نفساً ، وإرادة الذى لا يملك ذلك الشىءَ ويَوَدُّ لو فازَ بهِ . فيَصحُّ مع التَّوَسُّعِ فى هذا المعنى ، أن يُقالَ قَوْلاً فَصلاً ، أنَّ العَرْضَ والطَّلَبَ هما اللذان يُعيِّنان القيمةَ . العَرْضُ بتمثيلهِ أولئك الذين يملِكونَ الشىءَ ويرغبونَ فى الخروجِ عنهُ بِبَديلٍ منهُ ؛ والطَّلَبُ بتمثيلهِ أولئك الذين لا يَحتاجون إلى الشىءِ ويتمنَّوْن اقتناءَهُ

فحيثما أَنافَ[٢] العرْضُ على الطلبِ — على حَدِّ ما هو مُشاهَدٌ من أنَّ الذين يُرِيدون بَيعَ قمحِهم أَكثر من الذين يَتَوَخَّوْنَ شِرَاءَهُ — كان الشىءُ ، وهو القمح فى هذا المَثَلِ ، نازِعاً بِثَمَنِهِ إلى الانخِفاضِ . فإذا كان الطلبُ مُنيفاً على العرضِ ، نَزَعَ الشىءُ بثمنهِ إلى الارتفاعِ . وهذا التَّضَرُّبُ — صُعوداً وهُبوطاً — يَستَمِرُّ إلى أن تُدْرِكَ الدَّرَجةُ التى تَتَوازَنُ معَها القيمة بين العَرْضِ والطلبِ

---

(١) يطيب عنهُ نفساً يرغب فى الخروج عنهُ

(٢) أناف زاد

إلاَّ أنَّ هذا التَّضَرُّبَ يَقِلُّ فى جانبِ البضائعِ الغزيرةِ التى يسهُلُ إنتاجُها فى وقتٍ غيرِ مُتَمادٍ، كما هو شأنُ أكثرِ الصُّنوفِ الشائعةِ أخَصُّها الأَشياءُ المُحَوَّلةُ (١)، وتَليها المحصولاتُ الزّراعيَّةُ . والسَّبَبُ فى ذلك هو أنَّ القيمةَ، كما ذكرنا، يُحَدِّدها التَّوافُقُ بين قُوَّةِ الالتماسِ لها وصُعوبةِ الظَّفَرِ بها؛ وصُعوبةُ الظَّفَرِ بالأَشياءِ ترتبطُ جملةً، بنفقاتِ الإنتاجِ وبما يُبْذَلُ من المجهودِ ويُعانى من التَّعَبِ ويُضاعُ من المالِ والوقتِ دون إيجادِها، ودون حملِها الى السُّوقِ أو الى دارِ طالبِها

فكلُّ مُنْتِجٍ قمحاً، أو أكسيَةً، أو أدواتٍ بيتيَّةً يكون بطبعِهِ مُستَعِدًّا للخروج عمَّا يَفيضُ عن حاجتِهِ من تلك الأَشياءِ، فيما اذا استَرْجَعَ — بمُقابلَةِ ما أعطى — الأَموالَ التى أَنْفَقَها لإنتاجِ تلك الأشياءِ، وفيما إذا أَصابَ رِبحاً، ولو طفيفاً، يَستَعيضُ بهِ عمَّا أصابهُ من المحذوراتِ

---

(٣) المحوَّلة المصنوعة فى شكل غير شكلها الأصلىّ :
Manufacturé

فَصُعوبةُ الحصولِ على البضائعِ الشائعةِ ، التى تحتملُ التَّمَدُّدَ بلا نهايةٍ وتَقْبَلُ الازديادَ المطَّرِدَ ، أصبحت تَقِفُ عند حدِّ النفقاتِ التى تُنْفَقُ لإيجادِها ، وهو ما يُسَمُّونهُ بالثمنِ الغُرْميِّ (١)

هذا الثمنُ الغرْميُّ لا يكون البتَّة فى حدٍّ واحدٍ عند كلّ المُنْتِجين ؛ لأنَّ منهم مَنْ هو أَمْهَرُ ومنهم مَنْ هو أكثرُ تَوْفيقاً بسبب ما يُحيطُ بهِ من الأَحوالِ الطَّبيعيَّةِ الصَّالحةِ ؛ غيرَ أنَّ ما تتعيَّنُ بهِ القيمةُ فى الغالبِ هو الثمنُ الغرْميُّ العاديُّ الذى يُنْفَقُ على إنتاجِ جميعِ الكميَّةِ التى يقتضيها الطلبُ أو تستدعيها حاجاتُ السُّوقِ

وكما أنَّ صعوبةَ الحصولِ على الأَشياءِ — وهى أحد رُكنَى القيمة — تَتَحَدَّدُ بنِسبةِ الثمنِ الغُرميِّ فيما يَتعلَّقُ بالمنتَجاتِ القابلةِ للزّيادةِ المطَّرِدَةِ، كذلك قُوَّةُ الرَّغبةِ فى

---

(١) الغرميُّ Prix de revient هو القدر الذى يُنفقُ من المال على المنتَج حتى يصلح للبيع ، و بعبارة أوضح هو الثمن الأصلى؛ فاذا بيع بربح ، فهو الثمن الغنميّ

اقتناء هذه الأشياء تتحدَّدُ بنِسبَتِهِ : إذ ما مِنْ أحَدٍ — إلاَّ فى الأحوالِ التى تُبِحُّ فيها الحاجاتُ العاجِلَةُ — يَرْضى بِشِراءِ شىءٍ مِنَ الأشياءِ الميسورِ إنتاجُها بِضِعْفَيْ ثَمَنِها ؛ بل يُؤْثِرُ الطَّالِبُ أن يَنْتَظِرَ حيناً حتى يُعْرَضَ عليهِ الشىءُ الذى يَرغَبُ فيهِ

وعلى هذا يَنْتهى تَضَرُّبُ الأسعارِ ، فى مجموعِ السِّلَعِ الشَّائِعَةِ ، إلى الانحصارِ ، مع تمادِى الزَّمَنِ ، فى دائِرَةٍ مِنْ نفقاتِ الإنتاجِ لا يَتباعَدُ عن مِحْوَرِها إلاَّ قليلاً

أمَّا الانْفِراجُ الواسِعُ الثَّابِتُ بينَ الثَّمنِ الغُرْمِيِّ ، والقيمةِ ، فلا يكون إلاَّ فى الصُّنوفِ الصَّعْبَةِ الإنتاجِ ، والتى لا يَتَيَسَّرُ تَعَدُّدُها كالبدائعِ الفنِّيَّةِ مِنَ الطِّرازِ الأوَّلِ ، وسائِرِ البضائعِ التى لا يُستَطاعُ الاستكثارُ منها فى وقت قصيرٍ دون زيادةٍ فى الإنفاقِ عليها

المُزاحَمة

المُزاحَمةُ هى القُوَّةُ الكبرى والمُنَظِّمَةُ العُلْيا لأعمالِ

العالَمِ الاقتصاديّ؛ وهى التى تَرجعُ بقيمةِ البضائعِ — إلاَّ ما هو مُستثنَى منها مما أسلفْنا ذِكرَهُ — إلى مقدارِ ما أُنفِقَ على إنتاجِها أو استِصناعِها، مما يدخل فيهِ ثمنُ المادَّةِ الأُولى وأجرُ اليدِ العاملةِ وفائدةُ رأسِ المالِ واستهلاكُهُ وربحُ المُكافِلِ أو المُستحْدِثِ كما وَصفْنا هذا الرِّبحَ فى حينِهِ

المُزاحمةُ، واسمها دليلٌ عليها، هى النِّزاعُ القائمُ بين المنتِجينَ فى سبيلِ بيعِ منتَجاتِهم بما يَعُود عليهم بالرِّبحِ. فكلٌّ منهم يُعنَى بنفاقِ سلعِهِ حتى إذا خشِيَ من استبقائِها فى مخازنِهِ خوفَ التَّلفِ أو خسارةِ الوقتِ والفائدةِ، أرخصَ ثمنَها إلى الحدِّ الذى يُعادِلُ ما أنفقَهُ على إنتاجِها أو استصناعِها

وربما كان ما أحدثه منها فوقَ قدرِ المطلوبِ، فنزلت القيمةُ إلى ما دونَ الثمنِ الغُرْميِّ؛ إلاَّ أنَّ هذهِ الحالةَ لا تدومُ ولا ينبغى دوامُها لأنها تُضعِفُ عزائمَ المنتِجينَ، أو بعضِهم، فيَقِلُّ العَرْضُ؛ وإذا قلَّ العَرضُ وبقِيَ الطَّلبُ كما كان، ارتفعت القيمةُ. كما أنهُ إذا تماسكَ الثمنُ حيناً

طويلاً ، فَوْقَ نفقاتِ الإنتاجِ ، خيفَ مِنْ تمادى المنتجينَ ، بسببِ الرّبحِ الاستثنائيّ ، فى الاستكثارِ مِنَ الصّنْفِ ، أو من طُرُوءِ مُنْتجين آخرين ينْبَرون لِمُنافَستهم فيهِ ، فيَهْبِطُ بذلك السّعْرُ

ما يستثنى من المزاحمة — الاحتكارات

تلك مَنافِعُ المزاحمةِ وَحَسْبُكَ منها أنها ، بما تُحدِثهُ من التّضَرُّبِ ، تجعَلُ تَناسُباً بين المكافأةِ على المنتجاتِ وبين المَجْهُوداتِ التى بُذِلَتْ دون إيجادِها

على أنَّ هناك أشياءَ لايَدَ فيها للمزاحمة ، تلك الأشياءُ هى التى جعَلَتْها الطَّبيعةُ احتِكاراً ، أو أدخَلَها القانونُ فى الاحتِكارِ : ومعنى الاحتِكارَ هَهُنا أنَّ البَائِعَ يكون واحداً فأمَّا احتكارُ القوانين فَمِثالُهُ في فرنسا التَّبْغُ والثِّقَابُ [1] ؛ وأمَّا احتكارُ الطَّبيعةِ ، فَمِثالُهُ اختصاصُ بعضِ الجهاتِ

---

(١) أعواد الكبريت

بإخراجِ الأنْبذَةِ الجيّدَةِ كأنْبذَةِ قَصر (لافيت) وقَصر (إيكم) الخ

ثمَّ إنَّ الاحتكارَ يكون تارَةً ثابتاً كما هو في المثالِ الذى ذكرناهُ أخيراً؛ وطَوْراً يكون عارضاً أى تابعاً لحالةٍ ما، كما لو أقْبَلَ جُمْهورٌ غفيرٌ مِنَ السُّيَّاحِ على قريةٍ ليسَ فيها إلاَّ عَجَلَةٌ[1] واحدة أو سفينة واحدة

المُحتَكِرُ سيّدُ السُّوق ولهُ أن يُعْلِيَ ثمنَ الشيء إلى آخرِ حدٍّ تبلغهُ رَغبةُ الآخرين فيهِ مع صَرْفِ النَّظَرِ عن نفقاتِ الإنتاجِ أو الاستصناعِ

غيرَ أنَّ أمثالَ هذا الاحتكار تَنْدُرُ فيما عدا الأحوالَ التى يَخلُقُ فيها القانون احتكاراً عن خطإٍ: فيَمنَعُ بهِ المزاحمةَ أو يَضَعُ لها حدّاً

على أنَّ المُشَرّعينَ قد أَلِفُوا أن يَجعلوا للاحتكار تَعريفةً يَنْتهى إليها سُلطانُ المُحتكِرِ

---

(١) العجلة هى اللفظة التى اصطلحنا عليها لتسمية المركبة أو العربة وتعريفها عند العرب: آلة تجرّها الدابة محمولة عليها الأثقال

مفاعيل المزاحمة

المزاحمة، باعتبارِ ما تَقَدَّمَ، تكون إذن السُّنَّةَ الكبرى الفاعِلَة فى جميعِ القِيَمِ. وهى التى تَعْمَلُ تدريجًا على خَفْضِ الأَسعارِ فى الأشياءِ التى تُؤَثِّرُ فى إنتاجِها الاستكشافاتُ العِلْميَّةُ والنَّجاحُ الاكتناهيُّ، على حَدِّ ما جرى للملابسِ ومُعْظَمِ الأدواتِ البَيْتيَّةِ، وبوجهٍ عامٍّ للمصنوعاتِ المُحَوَّلَةِ مِنْ غيرِ استثناءٍ، أَللَّهُمَّ إلاَّ الأصناف التى يَغْلب فيها الطَّلَبُ على العَرْضِ بِسَبَبِ نُمُوِّ السكانِ أو ازديادِ الرَّفاهيةِ

ولقد كانت هذه حالَ المحصولاتِ الزِّراعيَّةِ قَبْلَ أن تَدْهَمَها مُزاحمةُ البُلدانِ الجديدةِ، بما أَخَذَت تُرْسِلُهُ إلى أسواقِ العالَمِ القديمِ من مِيرَةِ القمحِ واللَّحْمِ والزُّبْدِ

على أنَّ هُبوطَ الأسعارِ، إذا كان ناجِمًا من النُّقْصانِ فى نفقاتِ الإنتاجِ، لا مِنْ كَسادِ السُّوقِ ولا من القِلَّةِ الاضطراريَّةِ فى الطَّلَبِ، فلا يُعَدُّ من النُّحُوسِ بل يُعَدُّ

مِن السُّعُودِ ؛ لأَنهُ بقدر ما يَسْهُلُ على النَّاسِ اقتناءُ ما يَرْغَبون فيهِ ، تكثُرُ لَدَيْهم ذَرَائِعُ التَّمتُّعِ

غيرَ أنَّ هُبوطَ القِيَمِ لا يكون سَعْداً إلاَّ إذا جاءَ من تَناقُصِ نفقاتِ الإنتاجِ كما أسلفْنا ، لا مِنْ أزمةٍ تحولُ بين المستهلِكين وبين الرَّغبة فى الأشياءِ أو بينهم وبين الوسائلِ التى تُمكِّنهم من الحصولِ عليها ، فتُثَبِّطُ عزائمَ المنتجين تثبيطاً يحمِلُهُم على التَّخلُّصِ من بِضاعتِهم بِصَفْقةِ المغبونين

الثمن

تَكلَّمْنا على القيمةِ وعلى المبادَلةِ ولم نذكر الثمنَ : ذلك لأنَّ بحثَنا فى المبادلةِ إنما حَصَرناهُ فى الطَّريقةِ السَّليقيَّةِ[1] الأُولى من طَرائقِها ، ونَعني بها تلك التى يُعْطَى الرَّجُلُ بمُقتضاها شيئاً يزيدُ عن حاجتِهِ فى مُقابلةِ شىءٍ هو اليهِ فى حاجةٍ ، كما لو قايَضَ قمحاً بِملحٍ أو سكَّرٍ أو نَعلَيْنِ أو كِساءٍ ، وهى الحالة التى كانت عليها مُجتمَعاتُ الأقدمين

---

(١) نسبة الى السليقة وهى الفطرة

ولم يَبْقَ منها إلاَّ أثرٌ استثنائيٌّ فى الأُممِ المُمدَّنةِ

أمَّا الطريقةُ التى ارتقت اليها تلك المقايضةُ فى تعَامُلِ الحضَرِيّين، فهى دُخولُ النَّقْدِ وَسيطاً بين المقايضاتِ. وكلُّ قيمةٍ قُدّرَت بالنَّقد فهى التى تُسَمَّى حينئذٍ بالثمنِ

obeikandl.com